السودان والحبشة

لقد ساءلت نفسى كثيراً عن الموضوع . . . هل أتناول السودان والحبشة من الناحية الجغرافية وهو أمر طبيعى من متحدث أنفق نصف عمره أو أقل قليلا فى الجغرافية دراسة وتدريساً . . . أم أتحدث عن تاريخ السودان والحبشة ؟! وهذا ما ينتظر فى جلسة علمية تدعو إليها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . ثم هبنى تحدثت فى الجغرافية أو التاريخ ؟ أو هبنى تناولت الناحيتين معاً فأى الحبشة تعنينى ؟ هل هى الحبشة كإقليم له شخصيته الجغرافية المستقلة وله من الخصائص والمميزات ما يعزز هذه الشخصية — أم هى الحبشة كوحدة سياسية تمتد خارج حدودها الطبيعية حيناً وتقصر دونها أحياناً ؟ ثم أى الوحدات السياسية أقصد . . . هل هى الدولة الحبشية بحدودها الراهنة أم هى الدولة الحبشية تتغير حدودها فى فترات التاريخ ؟ وأى سودان . . هل هو السودان كما نعرفه الآن — أم هو السودان فيما قبل الاحتلال البريطانى وقد امتد فشمل جهات تدخل اليوم فى حدود الأراضى الحبشية وجهات أخرى فيما وراء تلك الحدود — أم هو السودن القديم قبل أن تقوم فيه دولة موحدة على عهد محمد على تجمع بين أطرافه وتوحد بين جهاته ؟

كل هذه أسئلة طافت بذهنى — وحاولت أن أجيب عليها فتلخص جوابى فى أمر واحد هو الاحتماء بواو العطف التى تبيح ولا تقيد — وتوسع ولا تضيق — فكان حديثى فيه من هذه النواحى جميعاً — أمسها مساً خفيفاً وأتناولها بمقدار . أتناول الجغرافية والتاريخ ولا أهمل السياسة أو الاقتصاد .

* * *

ولابد لنا أن نقدم بين يدى هذه الموضوعات جميعاً حديثاً موجزاً عن جغرافية الحبشة الطبيعية ومعذرة إذا امتاز هذا الحديث بالجفاف والخشونة — فما كانت الجغرافية الطبيعية — مهما أدبناها — مما يستساغ محاضرة أو يستطاب حديثاً .

ولكن يهون علينا أن سنكتفى بإعطاء صورة عامة عن الأرض التى عليها الحبشة دون أن نوغل فى التفصيل أو نسرف فى وصف التضاريس .

والمظهر الطبوغرافى للحبشة مما يلفت النظر . فهى هضبة تمتد بين خطى عرض ٤° و ١٨° شمالا وبين خطى طول ٣٤° و ٤٠° شرقاً . وهى فى مجموعها ليست عظيمة التضرس بل أن سطحها أقرب إلى الاستواء وأن تكون بعض جهاته قد ترتفع فتكون جبالا عالية وخاصة فى الأجزاء الشمالية من إقليم « سمين » حيث توجد جبال أبو جريد وبواحيث ورأس داشان وتتجاوز جميعاً الأربعة آلاف متر فى الارتفاع . وبين بحيرة تانا ونهر الآباى تمتد هضبة الشوك التى يبلغ متوسط ارتفاعها نحو الألفى متر . وطبيعى أن تختلف أشكال هذه المرتفعات باختلاف الصخور المكونة لها — فهى قمم عالية وعرة الانحدار إذا كانت صخورها نارية أركية — وهى أقل ارتفاعاً وجوانبها ألطف انحداراً إذا كانت صخورها رسوبية أو متحولة .

ومن أهم الظاهرات الجغرافية فى الهضبة بحيرة تانا التى تقع على مستوى ١٨٤٠ متراً فوق سطح البحر . ولا تتوسط الهضبة بل تقع قريباً من حافتها الغربية التى يبلغ علوها ٢٣٠٠ متراً . ومن ثم كان لابد للمسافر من بحيرة تانا إلى السودان أن يرقى هذا الارتفاع بعد مسيره بضعة كيلومترات ثم يهبط بسرعة إلى ارتفاع ١٢٠٠ متراً — وبعد ذلك يتدرج فى الهبوط إلى سهول السودان .

ويحيط بالهضبة الحبشية إطار جبلى يمكن تتبعه بوضوح فى الناحية الشرقية فى سلسلة من الجبال تبدأ من جنوب سواكن بنحو ١٥٠ ك.م. وتمتد لمسافة ٣٢٠ ك.م. على طول ساحل البحر الأحمر حتى مصوع ثم تنحرف إلى الجنوب لمسافة ٧٠٠ ك.م. تقريباً حتى تصل إلى منطقة أديس أبابا . هذا الحائط الجبلى ينحدر من ارتفاع ٢٠٠٠ أو ٢٥٠٠٠ متر إلى البحر إلى سهول الدناكل . وفى جنوب أديس أبابا لا يظهر هذا الحائط واضحاً ولكنه على العموم يستمر فى اتجاهه الجنوبى حتى يصل إلى بحيرة رودلف أو قريباً منها . . . ويجابه هذا الحائط فى الشرق كتلة جبلية أخرى تكون بلاد العروس ومنها تمتد سلسلة جبلية هى جبال هرر التى تمتد شرقاً حتى خليج عدن وتنحدر تدريجياً إلى

سهول الصومال حيث تكون الحدود الشمالية للصومال الإيطالى « سابقاً » .

أما فى الغرب فيحيط بالهضبة قوسى جبلى طرفه الشمالى فى منطقة البحر الأحمر والجنوبى فى منطقة بحيرة رودلف وظهره إلى أراضى النيل وينحدر على شكل مدرجات غير منتظمة حتى ينتهى إلى الأراضى النيلية ولكنه على أى حال ألطف من الانحدار فى الشرق حيث يكون الانتقال من الهضبة الحبشية إلى منخفض الآقار وأراضى الصومال انتقالا فجائياً .

ولما كان انحدار الهضبة بصفة عامة إلى الغرب فإن معظم مياهها تنصرف فى هذا الاتجاه . ولا يوجد سوى نهر واحد ينحدر شرقاً هو نهر « هواش » الذى يجمع مياهه من منطقة أديس أبابا ثم يشق طريقه إلى خليج عدن ولكنه يضعف عن أن يصل إليه فينتهى به المطاف إلى المنافع التى تقع إلى القرب من جيبوتى ... ولا ينحدر من الهضبة إلى الجنوب سوى نهر واحد أيضاً هو نهر « أومو » الذى يصب فى بحيرة رودلف . وهناك نهران آخران لا ينبعان من الكتلة الحبشية الرئيسية وإنما من مرتفعات العروسى ويتجهان جنوباً وهما نهر جوبا الذى يصل إلى المحيط الهندى ونهر وبى شبيلى Webbe Shibeli الذى يقطع مرحلة طويلة ويوازى الساحل لمسافة بعيدة ولكنه يعجز عن الوصول إلى المحيط فيفقد نفسه فى الرمال غير بعيد من الساحل .

ولكن أهم الأنهار الحبشية فى الواقع هى التى تنحدر إلى الشمال الغربى فتدخل فى حوض النيل وهى تكازى فى الشمال ويحمل اسم عطبرة فى مجراه الأدنى والسوباط فى الجنوب وبينهما أهم الأنهار الثلاثة وهو نهر الأباى أو النيل الأزرق ويخرج من بحيرة تانا ثم يكون قوساً كبيراً حتى يخرج إلى سهول السودان . . . وهناك نهر رابع ينحدر من الهضبة ولكنه لا يستطيع أن يحمل مياهه إلى النيل الأعظم فيلقى بها وبما تحمل من رواسب فى السهول التى تشرف عليها الهضبة فى الشمال الغربى مكوناً دلتا فيضية مروحية حول كسلا .

ولقد أدى ارتفاع هضبة الحبشة إلى تمتعها بمناخ معتدل بالرغم من قربها من خط الاستواء . فهى أقل حرارة إذا قورنت بسهول الدناقل أو الصومال التى تحف بها من الجنوب والجنوب الشرقى — ومن صحارى النوبة أو منخفضات

النيل الأعلى التى تحدها من الشمال الغربى والغرب . كذلك أدى بها الارتفاع ونظام الرياح السائدة إلى أن تتمتع بقسط وافر من المطر الأمر الذى يميزها مرة أخرى عن الجهات المحيطة بها فبلاد الدناكل والصومال أراضى جافة أو شبه جافة — أما بلاد النوبة فصحراء حقيقية تتمثل فيها بجلاء كل مميزات المناخ الصحراوى . ولا توجد منطقة مما يحيط بالحبشة وتدانيها إلى حدما فى كمية المطر الساقط سوى جهات النيل الأعلى إلى الجنوب الغربى من الهضبة .

واضح من هذا أن مظاهر التضاريس فى الهضبة الحبشية وظروف المناخ السائدة فيها تجعلها تختلف كل الاختلاف عن جميع الأقطار المحيطة بها وتمنحها شخصية جغرافية مستقلة تقوى فيها الشعور بالعزلة وتطبع تاريخها بطابع خاص مميز . ففى العصور القديمة كانت الهضبة صعبة المنال إلى حد كبير ولم يكن وصول الناس إليها سهلا ميسراً — وبصفة خاصة أولئك الذين يقصدونها بسوء — ولم يكن فى استطاعة التجار أن يتوغلوا فيها إلا برضاء أهلها وبمعونتهم . وكان فى مقدرة الأحباش دائماً أن يقضوا على أى دخيل وهو يجتاز إلى بلادهم الممرات الضيقة أو يرتقى المنحدرات الوعرة . وكانت الهضبة أشبه بالحصن المنيع حوائطه السلاسل الجبلية والحافات العالية ذات الجوانب الرأسية القائمة فى معظم الأحوال والتى لا يقطعها إلا عدد من الممرات لا يدرى بخباياها إلا الأحباش أنفسهم — الذين كان فى استطاعتهم أن تهبط الآلاف منهم بسهولة إلى السهل الساحلى على البحر الأحمر فى الشرق أو إلى أراضى سهول السودان فى الغرب . وبعد أن يتموا الوطر من إغارتهم يعودون فى سهولة ويسر إلى قواعدهم فى المرتفعات دون أن يستطيع أحد أن يتعقبهم .

ولقد عاش الأحباش طويلا فى جبالهم الوعرة المنعزلة . وكان طريق اتصالهم الوحيد مع مراكز الحضارة القديمة فى حوض البحر الأبيض هو موانى البحر الأحمر . ولم يكن الطريق البرى الذى يعبر صحراء النوبة ذا أهمية تذكر وعن طريق موانى البحر الأحمر كانت الحبشة تصدر حاصلاتها الطبيعية أو حاصلات الأقطار المتصلة بها تصدر الذهب والعاج والتوابل وتصدر عطور الصومال ورقيق النيل الأعلى ثم البن فى عصر أحدث من إقليم كافا موطنه الأصلى فى مرتفعات الجنوب .

وعن طريق موانى البحر الأحمر كانت الحبشة تستورد المواد المصنوعة من بلاد البحر الأبيض المتوسط ومعها الإشعاعات الرئيسية للحضارات المحيطة بذلك البحر . وعن هذا الطريق جاء الغزاة الأول من بلاد العرب الجنوبية أولئك الذين حملوا اللغة والكتابة الحبشية — والذين أسسوا مملكة أكسوم أقدم الممالك الحبشية التى نعرف طرفاً من تاريخها — وعن هذا الطريق وصل النفوذ البطلمى فى القرن الثالث قبل الميلاد حينما أرسل بطليموس الثانى والثالث البعوث لارتياد سواحل البحر الأحمر فأنشأت بعض المراكز التجارية وكان من أهمها برينيس التى قام فى مكانها فيما بعد ميناء زولا Adulis المنفذ الرئيسى لمملكة أكسوم وحلقة الوصل بينها وبين مصر . وعن طريق هذا الاتصال وفدت المسيحية إلى سواحل البحر الأحمر ومنها تسربت إلى الحبشة على يد القديس فرومنتيوس Frumentuis الذى نجح فى نشرها فى أكسوم فى أواخر القرن الرابع .

ولكن هذا الطريق الوحيد أمام الحبشة لم يكن مأموناً دائماً — بل كثيراً ما انقطع واضطرت الحبشة إلى العزلة الكاملة عصوراً طويلة خصوصاً بعد ظهور الإسلام وعبوره إلى الشط الأفريقى ولم يكد ينتهى القرن الثامن حتى كان الساحل الحبشى كله تحت السيطرة الإسلامية . وأصبحت الهضبة جزيرة مسيحية فى وسط عالم مسلم أو وثنى ولم يعد لها مجال للتوسع إلا فى الجنوب حيث تضعف الحواجز الجبلية بعض الشىء فانتشرت المسيحية فى هذا الاتجاه إلى كوجام ولستا Lesta وأجهرة وشوا . غير أن هذا الباب الجنوبى الأقل مناعة كان الطريق الذى سلكته عناصر الجالا فى هجراتها المتعددة إلى الهضبة منذ القرن الرابع عشر كما سلكته الغزوات الإسلامية التى قام بها الأمير محمد الغرنى فى القرن السادس عشر .

وعن طريق البحر الأحمر أيضاً اتصلت الحبشة بأوربا فى القرن الخامس عشر وأصبح لها علاقات دبلوماسية مع البرتغال ووفد عليها الرحالة والمستكشفون . ولكن العزلة الطويلة التى عاشت فيها الحبشة تركتها تنظر إلى هذه الاتصالات نظرة ريبة وحذر ولذلك ظلت وأبوابها مغلقة أمام الأجانب إلى حد كبير .

فلا غرابة إذن أن يظل الأحباش يفخرون بأن بلادهم لم تغز . وقد ظلت لهم هذه المنعة حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حينما هزمهم الإنجليز فى مجدالا سنة ١٨٦٧ . ولكنهم استردوا فخرهم فيما بعد حينما هزموا الطليان فى عدوة هزيمة منكرة . . .

هذه الأمثلة الكثيرة والشواهد العديدة التى سردتها أردت أن أوضح بها حقيقة عامة هى أن التوجيه الجغرافى للحبشة كان دائماً نحو الشرق أى نحو البحر الأحمر ولم يكن نحو الغرب إلا فى النادر وظلت الحبشة دائماً تولى ظهرها نحو حوض النيل . ولكنها وإن تكن قد نجحت فى هذا السبيل من الناحية البشرية إلا أنها لم تكن كذلك من الناحية الطبيعية فقد لعبت المياه المنحدرة منها دوراً خطيراً فى حياة النيل وبالتالى فى حياة السودان أكبر الأقطار الممثلة فى حوضه فوادى النيل وإن يكن قديماً نسبياً فى مصر إلا أنه لم يكن على صلة بالمياه الحبشية وبما تحمله من طمى — وإنما تم هذا الاتصال فى وقت متأخر لا يرجع إلى أكثر من ٣٠ ألف سنة — ولا يعنينا هنا أن نتناول الطريقة التى تم بها هذا الاتصال بقدر ما تعنينا النتائج الخطيرة التى ترتبت عليه إذ كان اتصال النيل الأزرق بالنيل النوبى المصرى أهم مرحلة فى تطور نهر النيل على الإطلاق ترتب عليها التطور الذى شهدته أراضى السودان ومصر كمناطق يمكن أن يعيش فيها الإنسان وأن تقوم فيها الحضارة ولو لم يتم هذا الاتصال . لظل النيل النوبى — المصرى يستمد مياهه من مرتفعات البحر الأحمر حتى إذا ما قلت مياه هذه المرتفعات كما هو حادث فعلا جف النهر وأصبح وادياً كالأودية الجافة الكثيرة التى تحرقها فى صحراء مصر الشرقية — ولظلت سهول الجزيرة قلب الحياة الاقتصادية فى السودان إما تحت مياه بحير السد فى رأى — أو منطقة جافة أو شبيهة بالجافة تكمل سهول دارفور وكردفان .

ولا تزال الهضبة الحبشية تلعب دورها الخطير فى مائية النيل حتى يومنا هذا — فالإيراد السنوى للنيل الأزرق يبلغ ٥٠ مليارم٣ — وللسوباط ١٤ مليار وللعطبرة ١٢ مليارم٣ — أى أن هضبة الحبشة تمد النيل سنوياً بـ ٧٦ مليار متر مكعب أى نحو ٧٢ ٪ من إيراده العام .

وللضبة الحبشية تأثيرها على مناخ السودان وخاصة فيما يتعلق بكمية المطر — وهو عامل اجتماعى له أثره العظيم فى التنظيم الاجتماعى وفى الحياةالاقتصادية . والناظر إلى خريطة خطوط المطر المتساوية فى السودان أو خريطة لأقاليمه النباتية يجد أن هذه الخطوط تسير متوازية من الغرب إلى الشرق حتى تجابه الهضبة الحبشية فتتجه إلى الشمال متأثرة بالظروف المناخية السائدة فى الهضبة — وتظهر هذه الحقيقة حينما تقارن بين بلدين على خط عرض واحد إحداهما على حدود الحبشة والأخرى فى وسط السودان . فكسلا والخرطوم على خط عرض واحد ولكن أمطار كسلا ٣٢٧ م.م فى السنة بينما أمطار الخرطوم ١٦٣ م.م والقضارف وواد مدنى — أمطار الأولى ٦٨٥م.م والأخرى ٤٠٤ م.م والروصيرص والرنك — الأول ٧٦٨ م.م . والأخرى ٥١٣ م.م. . وهذه الأرقام جميعا تؤكد مبلغ تأثر مطر السودان الشرقى بظروف الهضبة الحبشية .

ولكن هضبة الحبشة لم تلعب مثل هذا الدور الخطير فى الجغرافية الحبشية لسكان السودان بل على العكس كان موقفها سلبيا أكثر منه إيجابى . . . فالسودان الآن تتنازعه السلالات القوقازية من الشمال والسلالات الزنجية من الجنوب . وهذه العناصر الأخيرة أقدم فى أفريقية وقد وصلت على دفعات . ونحن وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد من أين جاءت هذه العناصر الزنجية وما هى أوطانها الأساسية إلا أنها على أى حال كانت فى مكان ما فى أطراف الجزيرة العربية الجنوبية . ثم دخلت أفريقية عن طريق باب المندب وهنا بدأت هضبة الحبشة بظروفها الطبيعية تلعب دورها فتحول دون توغل هذه العناصر إلى الشمال وتحتم عليها أن تتوجه جنوباً فتنتشر فى أفريقية الوسطى والجنوبية ولا تصل إلى أراضى حوض النيل إلا فى فترة متأخرة بعد أن استقر بها الحال فى تلك الأوطان الأفريقية الجديدة .

ثم كانت الموجة الكبرى الثانية التى وصلت إلى أفريقية والتى جاءت أيضاً عن طريق باب المندب وحملت العناصر الحامية فعمرت بها بلاد الصومال والجلا والدناكل وامتدت فى شرقى أفريقية وإلى إقليم بحيرة رودلف وفى الفترة التى انقضت بين دخول الزنوج ودخول الحاميين كانت الأجزاء الشرقية من بلاد

الحبشة أو بمعنى آخر منخفضات أريتريا قد جفت مستنقعاتها مما سهل على هذه العناصر أن تتجه نحو الشمال إلى جهات البحر الأحمر ووادى النيل الأدنى الأمر الذى لم يتيسر للعناصر الزنجية من قبل كما استطاعت أيضاً أن تصل إلى الهضبة الحبشية نفسها . . . معنى هذا أن بلاد الحبشة التى حاولت دون توغل الزنوج فى السودان ووقفت فى سبيل ذلك موقفاً إيجابياً نجد أنها تقف موقفاً سلبياً فيما يختص بالحاميين — فلا هى حالت بينهم وبين الانتشار فى السودان — ولا كانت وسيلة ساعدتهم فى هذا الغرض . . . لقد داروا حولها فى الشرق والشمال حتى وصلوا إلى السودان وتركوا آثارهم فى جماعات البيجاة وفى النوبيين .

ومضت قرون عدة — ثم حدث أن وفدت عناصر سامية من بلاد اليمن عبرت البحر إلى أفريقية وكان من أهمها قبيلة الحبشات وجاء معهم أو ربما بعدهم عدد آخر من القبائل العربية . وقد وجدت هذه القبائل السامية أن العناصر التى توطنت أفريقية لا تزال على حالتها البدائية فحملت إليها نور الحضارة وبنوا المساكن بالأحجار وعلموهم طرقاً جديدة فى الزراعة بتدريج المدرجات وإقامة الخزانات لحجز المياه وهى مظاهر حضارية عرفتها من قبل سبأ وغيرها من من جهات الهضبة اليمنية التى لا تختلف إلا اختلافاً طفيفاً عن الهضبة الحبشية .

استقرت هذه العناصر فى الحبشة — ولم تفكر فى الانحدار إلى سهول السودان — ولو أنها أرادت ذلك لما تعذر عليها — فالهبوط من الهضبة سهل بعكس الصعود إليها — ولكن هذه الجماعات لم تكن فى حاجة ماسة إلى هذا الهبوط فأوطانها الجديدة أحسن جواً وأغزر مطراً وأخصب تربة من سهول السودان المجاورة — ومن ثم كانت هذه المؤثرات السامية بمعزل تام عن المؤثرات السامية الأخرى التى لعبت دوراً خطيراً فى تاريخ السودان الجنسى . فلم تؤثر فى السودان ولم يتأثر بها السودان .

وكل من السودان والحبشة كوحدة سياسية حديث التكوين . فقد كانت الحبشة فى أوائل القرن التاسع عشر مسرحاً للحروب بين حكام المقاطعات الأربع المكونة لها (نيجرى — أمهره — جوجام — شوا) ولم يكد ينتصف القرن حتى اختفى من الميدان اثنان من هؤلاء الحكام هما على رأس جوندار وجوشو

رأس جوجام Goshu وكان المنتظر أن يصفو الجو لأحد الباقين ولكن الذى حدث أن ظهر على مسرح الحوادث وجه جديد يمثله الرأس كاسا الذى أصبح فى سنة ١٨٥٤ حاكماً لجوندار وجوجام معاً ثم استطاع فى السنة التالية أن يتوج ملكاً لملوك الحبشة باسم ثيودور وأن يستولى على شوا فى سنة ١٨٦٠ وأن يخضع عناصر الجلا فى الجنوب — وبذلك توحدت الحبشة ولكن الانقسام عاد فتجدد فى السنوات التى تلت انتحاره فى مجدلا سنة ١٨٦٦ حينما تأكد من هزيمته أمام القوات البريطانية وانقسمت البلاد بين الإمبراطور يوحنا الرابع فى الشمال ومنليك ملك شوا فى الجنوب — فلما نقل الأول فى واقعة القلابات على عهد المهدية استطاع منليك أن يعلن نفسه إمبراطوراً على الحبشة الموحدة فى سنة ١٨٨٩ باسم الإمبراطور منليك الثانى .

ولا يختلف السودان عن ذلك كثيراً فقد قامت فيه دول وإمارات متفرقة كان من أهمها دولتا دارفور فى الغرب وسنار فى الشرق وتهمنا الأخيرة هنا أكثر مما تهمنا الأولى فقد كانت مشتركة فى حدودها مع الحبشة وقد حدث احتكاك بين الدولتين فى عهد بادى شلوخ إذا انحدر الأحباش من هضبتهم بقيادة مليكهم أياسوس الأول فى سنة ١٦٩٠ واكتسحوا أراضى شرقى النيل الأزرق ووصلوا قبالة عاصمة الفونج وكادوا أن يقضوا على الدولة لولا أن قيض الله لها أميراً دارفورياً كان قد لجأ إلى سنار فقاد الجيش واستطاع أن يرد الأحباش بعد أن كلفهم خسائر فادحة .

وفى عهد محمد على اتسعت مصر جنوباً فتوحد بمجهودها السودان لأول مرة فى تاريخه واعتبر السودان جزء من مصر ومن ثم فتاريخه السياسى فى هذه الحقبة وعلاقاته الخارجية ليست سوى جزء من السياسة المصرية العامة ولم يكن للسودان شخصية منفصلة عن مصر إلا فى عهد المهدية — فدراسة العلاقات الحبشية السودانية ليست فى الواقع سوى دراسة للعلاقات الحبشية المصرية — وهى علاقات قديمة يوطدها ارتباط الكنيسة الحبشية بالكنيسة القبطية فى مصر من جهة واعتماد مصر على الحبشة فى موارد مياهها — وقد اختلفت هذه العلاقات بين الصداقة والعداوة — ولسنا فى حاجة أن نتناول هذا الجانب إلا فيما يتصل اتصالا مباشراً بالسودان .

ولقد استطاع الخديو إسماعيل أن يتوسع بالإمبراطورية السودانية فى أراضى الحبشة والصومال فحصل من الباب العالى على مينائى سواكن ومصوع فى سنة ١٨٦٦ كما حصل على زيلع فى سنة ١٨٧٥ وبذلك تمت له السيطرة على ساحل البحر الأحمر الأفريقى وفى نفس الوقت عمل على مد نفوذه فى الداخل حتى يتمكن من القضاء على تجارة الرقيق التى شغل نفسه بها — فأرسل منزنجر فى سنة ١٨٧٢ بحملة إلى بوغوص فأخضعها واحتل كيرن عاصمتها وفى سنة ١٨٧٥ أرسل رؤف باشا إلى هرر وكان سلطانها الأمير محمد بن عبد الشكور قد استبد بأهلها وحكمهم حكماً قاسياً غاشماً فاستنجدوا بالخديو إسماعيل الذى استطاعت جيوشه أن تجتاز أرض العيسى وأن تخضع الجالا فى طريقها إلى هرر والتى سلم أميرها طوعاً كما سلمت قبائل كثيرة للحكم المصرى . وبذلك أصبحت الممتلكات المصرية فى شرق أفريقية وفى السودان تطوق الحبشة تماماً مما أثار أحقادها خصوصاً وقد كانت تدعى حقوقاً فى بوغوص وآيلت Ailet وأوشا فأكثرت من إغارتها على حدود الأراضى السودانية الأمر الذى أدى إلى قيام الحرب الحبشية المصرية التى انتهت بهزيمة الجيوش المصرية فى موقعة القرع فى مارس ١٨٧٦ .

ثم قامت الثورة المهدية فى السودان وساعدت الظروف جميعاً على نجاحها واضطرت مصر إلى إخلاء البلاد بناء على نصيحة الإنجليز . وتوحد السودان لأول مرة تحت حكم سودانى غير أن بعض الأجزاء النائية من الإمبراطورية ظلت مستعصية على نفوذ المهدى وهى مديرية خط الاستواء فى الجنوب ومديرية هرر فى شرق الحبشة وموانى سواكن ومصوع وزيلع وبربرة . . . كل هذه ظلت على ولائها لمصر ولكن إنجلترا كانت تحتم أن يشملها هى أيضاً قرار الإخلاء رغم ولائها . وفى هذا دليل على ما كانت تبيته وزارة الخارجية البريطانية لهذا الجزء من أفريقية .

وفى ١١ أغسطس سنة ١٨٨٤ أصدرت وزارة الخارجية البريطانية الأمر إلى الحكومة المصرية بأن تساعد دون إبطاء على إخلاء هرر التى تمكنت الحبشة من الاستيلاء عليها فيما بعد فى سنة ١٨٨٧ فضمت إلى أملاكها مساحة تزيد على مائتى ألف كيلومتر مربع . هذا فضلا عن إخلاء موانى ساحل الصومال .

ثم عادت فقررت بعد قليل أن تقوم مصر بأعباء نفقات الإخلاء . وقد استولى الإنجليز على زيلع فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ وأصبحت إدارة ساحل الصومال جميعه تابعة لحكومة الهند ومن العجيب أن ظلت الحكومة المصرية تدفع نفقات إدارة بلاد الصومال بعد أن احتلتها الجنود الإنجليزية ولقد استبقى الإنجليز عدداً من الجنود ورجال البوليس المصريين حتى ٥ أكتوبر ١٨٨٨ حينما أنزل العلم المصرى نهائياً .

وفى فبراير سنة ١٨٨٥ قررت إيطاليا بالاتفاق مع إنجلترا احتلال مصوع وكانت قد بسطت حمايتها من قبل على عصب — وبذلك تمت لها السيطرة على الساحل بين البلدين وكان هذا هو بداية قيام أرتيريا كمستعمرة إيطالية على حساب الأراضى السودانية والحبشية . ومن الغريب أن يقرر مؤتمر لوزان أن تستمر مصر فى دفع أتاوة زيلع ومصوع المقررة لتركيا رغم احتلال المدينتين بالجنود الإنجليزية والإيطالية .

ولقد وافقت إنجلترا فى معاهدة ٢٤ مارس سنة ١٨٩١ التى عقدتها مع إيطاليا على وصل حد الصومال بالنيل الأزرق ، ومعنى ذلك إدخال أثيوبيا كلها وملحقاتها فى هرر وشوا وكافا فى منطقة النفوذ الإيطالى ولكن انتصار الأحباش على الطليان فى عدوة سنة ١٨٩٦ قضى على هذا التوسع الضخم .

ولما قامت الثورة المهدية فى السودان كان طبيعياً أن تحتك مع الحبشة المسيحية — وقد بعث المهدى بكتاب إلى يوحنا ملك الحبشة يدعوه إلى الإسلام والمهدية ويحذره من المخالفة — وأرسل فى الوقت نفسه رجلا من أعيان الأحباش كان قد لجأ إلى المهدى وآمن بدعوته هو محمد جبريل — أرسله يدعو المسيحيين إلى الإسلام ويبشر بمهدوية محمد أحمد — وقد أحنق هذا كله يوحنا فأخذ يضطهد مسلمى الحبشة حتى اضطر كثير منهم إلى الهجرة للسودان وأن يلتجىء إلى المهدية — وقد أقاموا لأنفسهم فى عهد الخليفة التعايشى حلة فى « عراديب » شمالى القلابات — وأطلقوا عليها اسم « تبارك الله » وولى عليهم الخليفة رجلا من أنصاره هو « النورواد فقراء » وكانت القلابات قد احتلها محمد واد أرباب فى مارس سنة ١٨٨٥ . أما على الحدود الشمالية فقد كتب عثمان دقنه بعد

سقوط كسلا يهدد الرأس « ألولا » الذى أجاب على التهديد بالهجوم على جيوش المهدية فى كوفيت وهزمها هزيمة منكرة .

وقد أخذ محمد ود أرباب والنورواد فقراء يشنون الغارات على الحدود الحبشية ومنعوا الناس فى القلابات من دفع الإتاوة للحبشة وكان الأحباش إذ ذاك مشغولين بمحاربة الطليان الذين أغاروا على الحبشة من الشرق وظلت منطقة الحدود الحبشية السودانية طوال أيام المهدية فى حالة اضطراب — فالفارون من الحكم الحبشى يلجأون إلى السودان . وكذلك الناقمون على المهدى وشيعته يفرون إلى الحبشة . . وقد حدث أن كتب الرأس عدار إلى محمد ود أرباب يسأله رد بعض اللاجئين الأحباش فلم يجبه إلى طلبه . فزحف فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٨٦ بجيش كبير ومعه بعض السودانيين اللاجئين أمثال صالح بك شنقه وعجيل الحمرانى فهزم واد فقراء فى تبارك الله ثم انقلب فى اليوم التالى على واد أرباب فقتله وفرق جيشه وأحرق القلابات وعاد بالغنائم والأسرى .

وبلغت الخليفة التعايشى أخبار الهزيمة فاضطرب لها وسارع بتجهيز جيش من عشرين ألف مقاتل عقد لواءه لواحد من خاصة أقاربه هو « يونس الدكيم » وأرسله عاملا على القلابات فى ١١ مارس سنة ١٨٨٧ وبعث إلى النجاشى بخطاب يدعوه فيه إلى الإسلام كما فعل المهدى من قبل . ويقول له أننا « قد كنا معك ملاحظين إشارة قول سيد المرسلين اتركوا الحبشة فاتركوكم ومن ثم فلم نصرح لجيوش المسلمين بغزو جهتك حتى حصل منك التعدى البليغ على ضعفاء المسلمين الذين بالقرب إلى بلدك المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة — بالقتل والأسر والنهب والضر — وصار يأوى إليك كل من يرتد عن دينه من المسلمين كصالح شنقة وعجيل وإدريس إلى جن ومضوى ومن معه من المرتدين . ولما لم يمكن تركها سدا على ذلك الحال — وتعين الالتفات إلى صدك عن هذا المجال عينا الجيوش الكفاية من الأنصار أهل النجدة والحماية إلى الإقامة بالثغر الموالى لجهتك صداً لما يتوقع منك » . واشترط الخليفة فى كتابه لمنع الغزو ثلاثة شروط هى :

١ — المبادرة بإرجاع جميع الأسرى المسلمين الموجودين لدى يوحنا .

٢ ـ تسليم اللاجئين من أمثال صالح شنقة وإدريس أبى جن وعجيل الحمرانى ومضوى ومن معهم إذا كانت لهم رغبة فى الرجوع إلى المهدية أما إذا « أصروا على ردتهم مختارين الكفر على إيمانهم » فليكتبوا إقراراً بذلك يرسل إلى الخليفة .

٣ ـ كف التعدى على بلاد الإسلام وعدم تجاوز الحدود .

ولكن النجاشى لم يرد على كتاب الخليفة ـ وكان يونس قد استرد القلابات واتخذها مركزاً يناوش منه الأحباش فى داخل حدودهم ويرسل الحملات تقتل وتأسر وتعود بالغنائم إلى القلابات ـ وكان رد النجاشى أن أمر الرأس عدار بتجهيز حملة للاستيلاء على القلابات وطرد الدراويش منها ـ وعلم يونس بأمر هذه الحملة قبل إعدادها فطير الخبر إلى الخليفة الذى سارع فأعد جيشاً من أربعين ألف مقاتل بقيادة خير قواده حمدان أبى عنجه يعاونه الزاكى طمل والنور عنقرة ووصل الجيش إلى القلابات فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٧ واستلم أبو عنجة القيادة من يونس الدكيم الذى عاد إلى أم درمان .

وأنفق أبو عنجه أسابيع يعد جنوده فإذا كان التاسع من شهر يناير سنة ١٨٨٨ بدأ الزحف على غندار عاصمة الحبشة القديمة فلما وصل إلى أبواب المدينة احتدم القتال بينه وبين الأحباش ثم انتهت المعركة بانهزام الحبشة تاركة فى ميدان المعركة ستة بين قتيل وجريح ودخل أبو عنجه غندار فنهبها وأحرق كنائسها وعاد بكثير من الغنائم والأسلاب والأسرى إلى القلابات أرسل معظمها إلى التعايشى فى أم درمان واستبقى له القليل وبعث إلى الخليفة بخطاب طويل يشرح فيه أدوار الحملة من بدايتها حتى الانتهاء منها .

ولم تمض شهور حتى أغار أبو عنجه مرة أخرى على الحبشة فى يونية سنة ١٨٨٨ ثم عاد إلى قواعده فى القلابات وفى أواخر السنة وصله خطاب من النجاشى بالعربية وبالحبشية يدعوه فيه إلى الصلح وبعد أن ذكر له أمر ما كان بينهما من حروب وما ترتب عليها من « هلاك المساكين فى الباطل » ويطلب إليه ألا يتعدى أحدهما على حدود الآخر يدعوه إلى الاتفاق والتحالف فى سبيل رد الإفرنج فهم « أعداء لنا ولكم فإذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكم بل أخربوا

دياركم وإذا غلبوكم وكسروكم فعلوا بنا كذلك فالرأى الصواب أن نحاربهم ونغلبهم . فالأصوب لنا ولكم أن نكون ثابتين فى المحبة جسداً واحداً وشخصاً واحداً ضد أولئك الذين يحضرون من بلاد الإفرنج والترك وغيرهم الذين يريدون أن يحكموا بلادكم وبلادنا مزعجين لكم ولنا — أولئك أعداؤكم وأعداؤنا نحاربهم ونهينهم ونحرس حدود بلادنا وممالكنا منهم » .

ولكن هذه الدعوة إلى الدفاع المشترك لم تلق قبولا عند أبى عنجه الذى رد بخطاب شديد اللهجة يرفض فيه الصلح إلا إذا اعتنق يوحنا الإسلام ويصفه بضعف العقل وفراغ الذهن والسفه والجهل ويتحداه بقوله « إن كنت ذا قوة وشجاعة كما تزعم فأقدم علينا ولا تحجم إذ ما أخرك كل هذه المدة إلى شدة الخوف وإذا لم يكن ذلك فاثبت فى محلك فلا بد لك من الهلاك » .

كان معنى هذا التحدى أن الحرب واقعة لا محالة فقد صمم يوحنا على طرد الدراويش من القلابات وردهم حتى أم درمان لتنفيذ هذا جمع جيشاً يقدر بربع مليون مقاتل وسير معه من حكام البلاد الرأس عدار والرأس أولولا وهيلا مريم وصالح شنقة وغيرهم . وبدأ أبوعنجه يحصن القلابات استعداد للقاء جيش النجاشى ولكنه مات فى يناير ١٨٨٩ . وخلفه الزاكى طمل فأتم الاستعداد للمعركة التى بدأت فى ٩ مارس وانتصر الأحباش فى أول الأمر حتى أصيب ملكهم بجرح مميت فدب الفشل فى صفوفهم وأخذوا فى التقهقر فتبعهم الزاكى إلى نهر العطبرة حيث أنزل بهم هزيمة ساحقة فقتل وغنم وسبى وعاد إلى القلابات وكتب للخليفة رسالة مطولة يشرح له ظروف المعركة فى كثير من التفصيل ويبالغ فى ذكر كرامات الخليفة التى أعانت جيوشه على النصر . كما أرسل إلى أم درمان رأس يوحنا وتاجه المرصع وأمتعته الخصوصية .

وبعد أن تم استرجاع السودان وبدىء فى تنظيم الإدارة الجديدة عقدت اتفاقية فى ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ بين الحكومة البريطانية والإمبراطور منليك الثانى عينت خط الحدود بين السودان والحبشة فى مسافة يبلغ طولها نحو ١٥٠٠كم. وأصبح هذا الخط يسير من خور أم حجر حتى القلابات ثم إلى النيل الأزرق وبارد والبيبور واكوبو ثم إلى تقاطع خط عرض ٦° شمالا مع خط طول ٣٥°

شرقاً ثم ينحرف الخط جنوباً ويتبع الضفة اليمنى لنهر كيبش Kibish حتى بحيرة رودلف وبذلك بسطت الحبشة سيادتها على البلاد الواقعة بين نهرى بارو والجب واستولت فى الجنوب الشرقى من السودان على أراضى تبلغ مساحتها نحو ٣٦٠٠ ك.م.[٢] . وفى نظير هذا التنازل تعهد منليك الثانى ألا يسمح بإقامة أعمال إنشائية على النيل الأزرق أو بحيرة تانا تؤثر فى النظام الطبيعى لجريان المياه إلا بالاتفاق مع حكومة السودان كما وافق على إنشاء محطة تجارية على نهر بارو فى غمبيلا . ومنح الحكومة البريطانية الحق فى مد سكة حديد عبر الحبشة تربط بين السودان وأوغندة . ومنذ ذلك التاريخ استقرت الحدود الحبشية السودانية .

أما عن العلاقات الاقتصادية بين البلدين فقد سبقت الإشارة فى صدر هذا الحديث إلى العوامل التى جعلت التوجيه الجغرافى للحبشة إلى الشرق أكثر منه إلى الغرب . وقد ساعد على هذا أن الأنهار الحبشية التى تنحدر إلى سهول السودان لم تكن أداة وصل كما هى الحال فى معظم الأنهار ذلك لأن صلاحيتها للملاحة لا تبدأ فعلا إلا بعد أن تهبط إلى سهول السودان — فالنيل الأزرق لا يصلح للملاحة إلا فيما تحت الروصيرص أى بعد أن يقطع النهر شوطاً داخل الحدود السودانية . . أما السوباط فصالح للملاحة من مصبه حتى غمبيلا على رافده بارو فى المدة من نصف يولية إلى آخر ديسمبر وغمبيلا وأن تكون مدينة حبشية إلا أنها محطة تجارية سودانية وتعتبر أهم مركز للتبادل التجارى بين جنوب السودان والحبشة .

ولا يمكن ربط السودان بالحبشة بالسكة الحديد نظراً للنفقات الضخمة التى تتطلبها مثل هذه السكة والتى لا تتناسب مع ما يمكن أن يجنى منها من فائدة ولكى تقدر الصعوبة يكفى أن نعرف أن التقدير المبدئى لمد خط حديدى من القلابات على الحدود إلى أديس أبابا وهى مسافة ١٣٠ ك.م. يبلغ نحو ٥ ملايين من الجنيهات أى بمتوسط ٤٠,٠٠٠ ألف جنيه للكيلو متر الواحد .

ويقل من أهمية الارتباط الاقتصادى بين البلدين طبيعة غلات كلا منهما ومبلغ الحاجة إليها فى الجانب الآخر ويظهر ضعف هذه الناحية إذا عرفنا

أن البن يمثل ٩٥ ٪ من قيمة الصادرات الحبشية إلى السودان وهو فضلا عن كونه سلعة كمالية إلى حد كبير لا يمثل الحبشى منه إلا الجزء الأقل مما يستهلكه السودان أما معظم المستهلك فيستورد من أوغنده أو الكنغو البلجيكى . أما واردات الحبشة من السودان فقوامها الملح الصخرى والمنسوجات المعاد تصديرها ومن السهل أن تستوردها الحبشة عن طريق البحر الأحمر وهى فعلا تستورد معظمها عن هذا الطريق .

والخلاصة أن هناك حقيقتين يجب أن يشار إليهما فى الحديث عن الحبشة والسودان . الأول أن الهضبة الحبشية بظروفها التضاريسية المميزة وشخصيتها المناخية المستقلة لعبت دوراً خطيراً فى تكوين أهم المظاهر الطبوغرافية فى السودان وهو نهر النيل – كما أثرت فى مناخ الجهات المتاخمة لها من السودان . ولكنها لم تلعب نفس الدور فيما يختص بتعمير السودان بسكانه – فقد كانت فى هذه الناحية عاملا معطلا – أو وقفت على الحياد فى أحسن الظروف .

أما الحقيقة الأخرى فهى أن التوجيه الجغرافى للحبشة لم يكن أبداً فى اتجاه السودان فى كل عصور التاريخ – وأن العوامل الجغرافية بشكلها الراهن تعمل على أن يستمر الوضع كما هو – وأن يظل اتجاه الحبشة إلى الشرق لا إلى الغرب .(١)

محمد محمود الصياد

---

١ – محاضرة ألقيت بدار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى نوفمبر ١٩٥١